ضرورة الحوار الحضاري

من أجل إنقاذ الإنسانية والإنسان

تقديم

إن العالم المعاصر يعيش الآن في حالة غليان وتوتر شديد بسبب اشتعال الحروب الساخنة والباردة، وأزمة الغلاء العالمي، بفعل تسلط بعض الأنظمة العنصرية والاستكبارية الطامعة في إخضاع الشعوب المستضعفة لهيمنتها ونفوذها، وأداتها صندوق النقد الدولي، مع غياب العقل الواعي، ونداءات المبادئ الأخلاقية والقيم السامية العليا، مما أدى إلى طحن مصالح الإنسان، وهزّ الوجود الإنساني، والإخاء البشري، والتعاون الحقيقي ومحاولة الواشنطو-شيطانية الهادفة إلغاء العرب مشروعاً وتاريخاً من الخارطة السياسية الدولية.

وأولياء الدين الحق والإيمان يجدون ضرورة حيوية لإحياء معالم الحوار الحضاري بين الثقافات والشعوب والحضارات والفلسفات، لأن للدين ونحوه تأثيره الفعال في علاج النزعات الدنيوية، وكبح جماح الأهواء والنزوات العدوانية، فكان من الحكمة ترك اليأس، وعقد الندوات والمؤتمرات المستمرة عن الحوار.

وأجد لزاماً علي أن أحدِّد الغاية الأساسية من الحوار ألا وهو إنقاذ البشرية أو الإنسانية، والإنسان ذاته من هذا الظلم والطغيان القائم، والتخلص من آفات السقوط أو الانهيار الحضاري، وما يتبعه من مخاطر كبيرة ومشكلات كثيرة، وذلك من خلال خطة البحث الآتية:

المحور الأول: تكامل الحضارات.

المحور الثاني: تعدد الأديان والمذاهب والثقافات.

المحور الثالث: الحوار من أجل بقاء الإنسان.

المحور الرابع: الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية.

المحور الخامس: مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام.

المحور الأول- تكامل الحضارات

الحضارة في المفهوم غير الديني ذات بُعْد مادي وهو المدنية، وساد هذا التصور في تاريخ الحضارات القديمة والحديثة، وهي ذات دورات تقفز إلى السلطة والعلو تارة، وتهبط إلى الحضيض تارة أخرى بحسب قوة نظام الدولة وضعفها، وذلك يشمل الحضارة الصينية والكونفوشوسية، والحضارة اليابانية في أقصى الشرق في آسية، والحضارة الهندوكية في الهند، والحضارة الأرثوذكسية السلافية في روسية وأوربة الشرقية الجنوبية، والحضارة الإفريقية السائدة في جنوب الصحراء في القارة الإفريقية، ومنها الحضارة الرومانية والإغريقية (اليونانية). وجاءت الحضارة الغربية الحديثة وارثة للحضارة الرومانية المادية على القوة والتفوق العسكري، وشهدت قفزة عالية متميزة بالابتكارات والاختراعات الجديدة والنهضة الصناعية المتطورة في القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد أدت الحضارة الإسلامية بفروعها في آسية وإفريقية دوراً مشرفاً في العلوم النظرية والتجريبية، واقتبست الحضارة الغربية منها كثيراً من الفنون والآداب والتجارب، ومنها علوم الطب والفلك والفلسفة والكيمياء والعلوم الرياضية والقوانين والأنظمة الإدارية والتعاقدية والاقتصادية ونحوها. ومن المعروف أن العرب هم الذين ابتكروا المنهج التجريبي قبل (بيكون). وامتازت الحضارة الإسلامية بأنها قائمة على بُعْدين: بُعد روحي وأخلاقي، وبُعد مادي، فأصبح للحضارة أفق شامل، وهو مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها

وعما بعدها، وهي خاصة في كل أمة من الأمم، على عكس المدنية التي هي عامة، ولا تختص بها أمة من الأمم، وليس لها علاقة بالعقائد، فوجدت ثماني دوائر حضارية، ولكل منها خصائص ومنها الحضارة الغربية بفروعها الثلاثة: الأوربية، والأمريكية الشمالية، والأمريكية الجنوبية.

والواقع أن الحضارات متكاملة، يأخذ بعضها من بعض، ويكمل بعضها البعض الآخر، لأنها تعتمد في الدرجة الأولى على العلم، والعلم حق مشاع بين الأمم، فلا يعرف عصبية ولا عنصرية.

وهذا يثبت حق الأمم في توارث الحضارات، فكل أمة تقتبس من غيرها لوناً حضارياً، بين تعديل أو نقص أو إضافة، وتلك سنة طبيعية، فلا يصح أن توصف الحضارة بانتماء معين ديني، أو مذهبي، أو قومي، أو طائفي، وحينئذ يجب استبعاد الصفة العنصرية أو العرقية، وأن تكون الحضارة ذات صبغة إنسانية وشاملة ومتوازنة، وهي الحضارة الإسلامية.

أما محاولة تصدير أمريكة والغرب معها نظرية العولمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية، فهو لحد ما مقبول، في الجانب الإيجابي للعولمة، أما الجوانب السلبية الكثيرة، فهي مثل ترويج الثقافة الغربية وحدها، والتقاليد الغربية، والتصورات الغربية، وتحقيق مصالح الأنظمة الاحتكارية والرأسمالية الكبرى، مما هو مقصور على الجوانب المادية فقط، ومحاولة إذابة الثقافة المحلية والصناعة المحلية، والقيم المحلية، والأفكار الدينية والاجتماعية اللصيقة بالدين، ونحو ذلك، فهذه السلبيات مرفوضة، رفضها أكثر من ثلاثة أرباع العالم.

المحور الثاني- تعدد الأديان والمذاهب والثقافات

الأديان وما يتفرع عنها من مذاهب وآراء وفلسفات واقع لا يمكن إنكاره، منها الحق وأغلبها في وضعها الحالي باطل بسبب الانحراف عن هدي الوحي الإلهي الذي تضمن نظاماً رفيعاً وسديداً للإنسان ومجتمعه، وتعدد الأديان سنة

إلهية عامة، لتحقيق التكامل والجمال، والتنوع، والتفاوت، ليكون للإنسان دوره الواضح في اختيار الأحق اتباعاً بعقله الرشيد، واهتداءً بوحي الله تعالى، وتأملاً في التجارب والواقع والتاريخ، قال الله تعالى في قرآنه واصفاً هذه الظاهرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

وكذلك الثقافات متنوعة، وتعددها أكثر من تعدد الأديان، لأنها نابعة من إفرازات كل مجتمع بحسب ظروفه، ومن المعلوم أن الثقافة - كما جاء في معجم العلوم الاجتماعية وقاموس علم الاجتماع - هي استجابة الإنسان لإشباع حاجاته المادية والروحية. أو إنها «تشمل نماذج الحياة الاجتماعية بأُسَرها العائلية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والتربوية والجمالية والسياسية واللغوية والعلمية» فالثقافة تشمل المعرفة والسلوك.

ومن الأسف أن الثقافة الشائعة كالحضارة القائمة مادية بحتة، فهي ترفض الدين، وتردد مقولة: الفن للفن، والعلم للعلم، والعقل فقط، ولا شيء آخر، وهذا مرفوض منطقياً وواقعياً، فلا بد للثقافة والعلم من الروحانيات لتنهض الإنسانية وتتقدم بنحو ثابت وراسخ ودائم، ولا بد أن يكون الفن أخلاقياً، لتحقيق السمو وتجنب المخاطر والدنايا والثغرات بل والأمراض الاجتماعية، والدين الحق أصل الأخلاق، ويجب احترام القيم الدينية في مجال الفن، وغيره، وفي تقييم معطيات الأفكار والعلوم ورصد الغايات وتحديد الأهداف، حتى لا يقع التعثر في نهاية المطاف، ويقع الشلل، لذا فإن الحضارة المادية، والثقافية الضعيفة غير المحاطة بسياج القيم العليا، سرعان ما تنهار، وحينئذ يبحث المثقفون والمفكرون عن البديل السليم، مع أن منظومة الدين في وسائله وغاياته تضع أمام الإنسان تصوراً سليماً منذ البداية، وتطالبه بوضع خطة منهجية محكمة، أو استراتيجية مدروسة سلفاً هي من وضع أحكم الحاكمين، منعاً من كثرة التقلبات، والتجارب وتوفيراً للجهد والوقت.

وأمام هذا التنوع والتعدد في الثقافات والأديان والمذاهب، كان لا بد من

الحوار، لمصلحة الإنسان والناس جميعاً، لأن الله تعالى خلق البشرية شعوباً وقبائل (ليتعارفوا) لا ليتناكروا ويتصادموا، وليعمهم الخير وثمراته الطيبة، ويتقوا الشر وآثاره الضارة، لذا كان أول ميثاق في العالم في مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، وإبان بدء تكوين الدولة الإسلامية، هو ما نصت عليه «الوثيقة أو الصحيفة» من جعل أتباع الإسلام والنصرانية واليهودية يعيشون على أساس متين في التعامل، لتوفير الثقة والأمن والاستقرار، ووضع مظلة وارفة من التعايش السلمي والودي والتعاون المثمر، والحوار البنَّاء، وما زال هذا المنهج مستمراً أو مطبقاً في الواقع الإسلامي ومتواصلاً بين أتباع الديانات في دائرة الحضارة الإسلامية - العربية، ينشط أحياناً، ويفتر أحياناً، والغالب هو تحقيق السلامة الأمنية والاجتماعية ما دام أطراف الحوار يلتزمون ببنود الميثاق ويحترمون معطياته. ومنطلقات هذا الحوار الصريح من غير تصادم إذا حسنت النوايا هو الآية الكريمة الناطقة بوضوح: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٥/٤٨].

وهذا دليل واضح على أن التعدد والتنوع في العقول والأفكار والأديان والشرائع والمذاهب والثقافات سنة واضحة من سنن الله تعالى في الكون، ليكون التسابق في الخيرات أو التسارع في الخيرات معبراً عن التنافس الشريف، ولإثبات الذات الإنسانية والظفر بفضيلة جهاد النفس والتغلب على العقبات، من خلال التوجيه الإلهي والهدي القرآني المعبر عن ختام الأديان والرسل إلى يوم القيامة.

المحور الثالث- من أجل بقاء الإنسان

إن الحوار الحضاري الإسلامي العام أمر حتمي مع الآخر، وهو كل من كان غير مسلم، سواء أكان يهودياً أم نصرانياً أم وثنياً أم بوذياً أم علمانياً أم مادياً ملحداً أم علمانياً لا يؤمن بدين، أم فكرياً مع العلماء والفلاسفة والحكماء

والمفكرين، أم اقتصادياً (رأسمالياً أم اشتراكياً) أم سياسياً جمهورياً أم ملكياً أم غير ذلك، وذلك من أجل إنقاذ البشرية كلها من التشتت والضياع والفناء، ومن أجل الإنسان ذاته ليبقى معبراً عن أكرم مخلوقات الله، ووجوده، وكرامته، وحريته المسلوبتين في منطق السياسة (التلمودية - العنصرية - المستكبرة)، ومن أجل صون أمانه، وتوفير غذائه (الأمن الغذائي)، ورعاية صحته (الأمن الصحي)، وتحقيق طموحه في السعادة، وتمكينه من ممارسة نشاطه وبذل جهده فيما ينفعه وينفع أطفاله وأسرته وأهله، فكلها أهداف عزيزة وكريمة، لأن أكثر من ثلث سكان العالم يعيشون تحت خط الفقر (أقل من دولار في اليوم) فمن أجل مَنْ تثار الحروب، وتحتل البلاد، وتقتحم حرمة الأوطان، وترتكب أخس وأحط الجرائم الأخلاقية، ويزجّ بالشباب في قيعان السجون، ليعاملوا معاملة أشنع وأحقر وأقسى من معاملة الحيوان مثل (سجن أبي غريب في العراق، وأبي زعبل في مصر، وسجون مراكز الأمن تحت الأرض في بلاد كثيرة، ومعتقل غوانتنامو) وغيرها من قيعان التعذيب والوحشية الداخلية والخارجية.

إن من حق الإنسان أي إنسان أن يعيش حراً عزيزاً كريماً، ومن الواجب على كل إنسان ألّا يكون أداة تخريب وتدمير وإرهاب، وخيانة لأمته ووطنه بالتجسس والتآمر وكيد المكائد، وإن من واجب الإنسان الوطني أن يدافع عن وطنه بعزة وإباء واستشهاد وشرف، وتضحية ووفاء، وأن يجنِّد كل طاقاته لطرد المحتل اللعين والغاصب الذميم، وإن من الحق على الإنسان أن يعاقب وحده عقاباً فردياً، ولا يعاقب آخرون أو يعاقب الشعب كله ومواطنو الدولة عقاباً جماعياً باحتلال الأرض ونهب الثروات والتركيع لأطماع الصهيونية العالمية المدمرة، والكيان الصهيوني العنصري المستبد الذي تحميه قوى الشر والعدوان من أنظمة الغرب (أمريكة وأوربة) والشرق الحاقد على الإسلام والمسلمين، مع أنه صار الآن في طور الشيخوخة. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨/٧٤] وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥/١٧].

إلا أن أنظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمحكمة الجنائية الدولية

والمنظمات الإنسانية كلها وغيرها، تعبث بها وتسخرها أمريكة وحلفاؤها لمصالحها التوسعية والاستكبارية، فالواقع الأليم أنه يأكل القوي الضعيف ويسخّر المسكين لحماية نفوذ المتسلط والمحتل والغاصب، ويستبد الأوغاد بالأحرار، والأشرار بالأشراف، ويتسلط الذئاب على الآمنين والمدافعين عن كرامتهم وأوطانهم، فهل من متعظ أو معتبر أو يقظ أمين؟!

إلى متى يغيب القانون الإنساني الدولي ومن مبادئه التقيد بعاطفة الرحمة والرفق بالإنسان بسبب الحروب المشتعلة وتدخلات الأقوياء في تقرير مصير الضعفاء بحجة مقاومة الإرهاب في الصومال وأفغانستان وفلسطين والعراق وغيرها؟!

المحور الرابع- الحوار من أجل تخفيف ألوان المعاناة الإنسانية

الحوار في أيامنا الحاضرة أحوج إليه من أي وقت مضى، لتخفيف جراح الإنسانية المعذبة تحت نيران القنابل المحرقة، والعنقودية الانشطارية الممزِّقة لأشلاء الجسد، فضلاً عن الذرية المحدودة، والصواريخ العاتية من البوارج الحربية الراسية في موانئ الدول المتعاونة والصديقة، والطائرات المغيرة التي تطير من القواعد الأمريكية في أغلب بقاع العالم؛ حيث لأمريكة أكثر من مئة قاعدة حربية كبرى ووسطى، في قارات آسية وإفريقية وأوربة، والبلاد العربية والإسلامية والصديقة والمحتلة فعلاً.

كيف تستبيح قوى الشر والعدوان بلاداً بعيدة عنها كالصومال المهجَّر شعبه، وأفغانستان المحتلة أراضيها، والعراق المدمر اقتصاده وشعبه، والمجزأ المقسَّم بين طوائف وكيانات هزيلة ثلاثة، وفلسطين التي تجتاح أجزاؤها ومدنها وقراها صباح مساء الطائرات والدبابات والمصفحات، وأحياناً تقتحمها الجرارات والجرافات لهدم البيوت على رؤوس أصحابها ومصادرة الأراضي الزراعية وغيرها، وقتل آلاف الأطفال والنساء والشيوخ، وأخذ الكثيرين منهم أسارى وزجهم في قيعان السجون ومعاملتهم معاملة غير إنسانية ولا أخلاقية، ففي

السجون الإسرائيلية زهاء (١٢٠٠ طفل)، ونساء كثيرات، بالإضافة إلى تشرد ملايين الأطفال في العراق، وإغلاق دور التعليم في فلسطين والعراق، وهناك ممارسة ظالمة وانتهاج سياسة الإبادة الجماعية للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وحصارها، ومنع الوقود والكهرباء والماء إلا القليل عن أهلها، ولا يخلو يوم من مشاهد محزنة ومؤلمة جداً من تشييع قوافل الشهداء الكثيرين في فلسطين والعراق وأفغانستان، حيث نرى يومياً بِرك الدماء، وأشلاء القتلى، ووهن الجراح مما يؤلم كل مسلم وكل إنسان ألماً شديداً.

ويتخذ الإعلام الغربي ذرائع واهية لأفعال المدمرين فيما سموه بالإرهاب، وهل بعد ممارستهم إرهاب الدولة في هذه البلاد العربية المسلمة يوجد إرهاب؟ إن المقاومة المحدودة والمدافعة عن الوطن وكرامة أهله تسمى إرهاباً، وهم لا يصفون أعمالهم بالإرهاب!

إننا بأشد الحاجة لوضع تعريف للإرهاب، وهذا ما لا يريده الغربيون والأمريكان، وفي طليعتهم الصهاينة ومن وراءهم أو معهم لتسويغ جرائمهم الوحشية والمستمرة.

إن الحوار الهادئ والمنطقي والمعقول أشد ما نكون بحاجة إليه لتخفيف آلام الإنسانية المعذّبة، سواء في بلادنا أم في غيرها، للتخلص من ويلات الحروب والكوارث، وفظائع الجرائم ضد الإنسانية، مع ظهور موجات الغلاء والجوع العالمي، وتتحكم ألوان الجنون والطيش في رؤوس القادة، والتأثر بالأهواء والشهوات، ونزعات الاستكبار والاستبداد والطغيان والظلم ومزاولة أخسّ وأحط ألوان العدوان، فإذا ما تحرك الضمير العالمي لإنصاف المظلومين وتخفيف بشاعة المعاناة الإنسانية عن المنكوبين ولو بالقول والمجاملة، ترى أمريكة المستكبرة وحلفاءها يتدخلون لتسويغ جرائمهم، وإعفاء الكيان الصهيوني من أي مساءلة، بحجة الهواجس الأمنية والدفاع عن المواطنين والمحتلين الغاصبين الذين يمارسون الإرهاب الأكبر، ومع بناء المستوطنات في الأرض العربية، ومصادرة الأراضي ظلماً وبغياً، وبناء جدران الفصل العنصري لتقسيم

القرى والمدن إلى كانتونات (تقسيمات هزيلة)، وقتل عشرات ومئات الآمنين العرب في كل مكان.

والصهاينة في الواقع لا يريدون سلماً، ولا إقراراً بحق، ولا تهدئة مع الشعب الفلسطيني، وكذلك الأمريكان وحلفاؤهم في أفغانستان والعراق والصومال لا يريدون سلماً ولا أماناً، وإنما يريدون ممارسة أسوأ أشكال التسلط والنفوذ والطغيان على الشعب الضعيف، والتحكم في ثرواته النفطية والمعدنية، بل تحطيم قوى الدفاع الإسلامي والعربي، وسرعان ما تظهر وتفتضح أكاذيبهم شيئاً فشيئاً مع الزمان، كانكشاف أكذوبة القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق منذ سنوات.

إن العرب والمسلمين يعيشون في كنف أخطار متوالية، فهل يفيد الحوار الذي لا يتسم بالجدية والمصداقية شيئاً، بل عدم الاحترام الفعلي للمستضعفين على أساس من الحق والعدل والمساواة، والذي يترفع قادة الحوار في أثناء ممارسته عن سياسة الإملاءات وفرض الشروط، كما هو شأن الغرب عادة، وكما حصل بعد الحرب العالمية الأولى والثانية من فرض الشروط على المنهزم، وهي شروط الحلفاء على ألمانية النازية، فإن لم تتحقق ضوابط الحوار على النحو المذكور كان أشبه بحوار الطرشان.

المحور الخامس- مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام

الذي تروِّج له أمريكة وسائر الغرب اليوم هو الصراع الحضاري على لسان الرئيس الأمريكي السابق كلنتون وغيره، وإبقاء نظرة التفاوت الإنساني والعنصري، والتميز الطبقي مع المسلمين وغيرهم في دنيا الواقع، وهذا في الحقيقة منشأ إشعال نار الحروب والتدخل في بلادنا في كل صغيرة وكبيرة، وهو ما تركز عليه المشاورات والمؤتمرات السرية بين الصهاينة والحاقدين التلموديين واليمين الأمريكي والأوربي المتطرف والمتصهين، فهم دائماً في تاريخنا المعاصر نذير شؤم وتآمر، وتورط في قصفٍ ونسف وهدم وتشريد وطرد وتيتيم

أطفال، وأسْرِ شبان، وجعل منطقتنا في غليان دائم ونزيف دماء مستمر، وتقتيل، ومصادرة أموال وأراض.. إلخ.

ولا يُذعِن هؤلاء جميعاً لنداءات الحق والعدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان وعزة الأوطان وترك تدنيس شرف المقدسات التي تجردوا من الإيمان بها أو مراعاتها.

بل إنهم في الواقع لا يريدون حواراً، بل حرباً، ولا سلماً بل فتكاً وضرباً، ولا حرية بل عبودية واستعباداً، ولا أمناً بل زرع الرعب والخوف ونشر الفقر والجوع، وإبقاء التخلف والجهل في ساحات بلاد الإسلام والعروبة.

ونحن من جانبنا ما زلنا نؤمن بالمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية، والإذعان لدواعي الفضيلة والتحضر، ومعطيات العلم النافع والتمدن الرفيع، واللجوء إلى الحوار البنَّاء القائم على منهج العدل والأمن والسلام، لتعيش البشرية في إخاء وأمن واطمئنان، ولعل ما يفيد عقلاءهم وأصحاب الضمائر الحية واليقظة الإذعان لمنطق الحق واللجوء إلى مظلة الحوار في تقدير الإسلام وكل دين يحترمه أتباعه، في ضوء المبادئ والقيم الآتية:

١- التزام ركيزة الإيمان الحق

للإيمان الصحيح إشعاع ونور لا يخبو، فهو يوجِّه الإنسان إلى التزام معالم الحق والعدل والإحسان والفضيلة، وإحياء الوجدان والإيمان ببعده السماوي الخالد، ويحفظ للإنسان الأمل الدائم في حياة طيبة هانئة، ويبعد عن الهواجس والقلاقل والاضطرابات، وينسِّق بينه وبين بني الإنسان، ومع موجودات الكون على أساس التأمل في عظمة الجلال الإلهي وروعة الجمال، ثم صون الإنسان عن العبث، وحفظ أي إنسان، لا إنسان الغرب والصهيونية فقط، بل كل مخلوقات الله تعالى عن التعرض للذل والهوان، ولا سيما احترام وجود أصحاب الحق الخالد، وأهل الوطن الراسخ في بلادهم، وتمكينهم من العيش بسلام ووئام.

يجب ألا يقتصر نداء الإيمان السماوي على مجرد رعاية المصالح الذاتية، والأطماع السياسية والاقتصادية، وإبقاء مناطق النفوذ والاستعلاء في بقاع العالم كله لحساب طرف واحد، أو قطب مستبد واحد، لأن المصلحة الدائمة هي المصلحة المشتركة، والمصلحة الخالدة هي التي تحقق العدل والمساواة والإخاء وتعميم الخير.

إن الحرية والحق في العيش المشترك بأمان وسلام واستقرار هما جوهر الحياة الصحيحة، وأساس النمو وتنمية طاقات الإنسان وإبراز مواهبه.

إن غياب الحرية يوقع الإنسانية في جحيم لا يطاق، وفي ارتكاب مظالم ومجازر لا حصر لها.

وإن من أسوأ هَجْر مبدأ الحوار والإصرار على بقاء فكر الصراع الحضاري الوقوع في آفات خطيرة، وانتشار ظاهرة الاستبداد والاستعمار ونشر الإرهاب الفكري، وادعاء الوصاية على الآخرين، واتهامهم بالغباء والجهل وعدم الفهم، وهذه كلها داء العصر الاستعماري الجديد، لفرض الهيمنة على الأفراد والقادة والشعوب، وممارسة أشكال الضغط الاقتصادي والثقافي والفكري تحت ستار العولمة، وزعم العمل من أجل تصدير الديمقراطية ونشرها في العالم، لكن كيف يلتقي الاستبداد والتحكم في مصائر الآخرين مع إيجابيات العولمة ومصداقية الديمقراطية؟!

الإيمان في البعد السماوي الصحيح كفيل بحل مشكلات الاضطراب العالمي، ورفع الأيدي الظالمة عن كل ألوان المعاناة، وتحرير الإنسان، وصون شرف الأوطان.

ويتطلب الإيمان، نبذ الإلحاد والعلمنة، ومقاومة سياسة الاستعلاء والاستكبار، ومحاربة الأطماع البشرية الجامحة، وإقرار الثقافات المحلية والبعد عن محاولة إلغائها، والتعارف في مجال الدوائر الحضارية المختلفة، ولا سيما علاج الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتفهم هذه الأوضاع،

وتكثيف الحوار السياسي والأمني والعقدي، واحترام القيم الإنسانية العليا والمبادئ الأخلاقية.

٢- الحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني

الناس في هذا العالم كلهم سواء، وهم إخوة من أصل واحد، وعليهم أن يلتقوا على صعيد واحد، وآمالهم وآلامهم واحدة، وحقهم في عيش كريم عام حق ثابت خالد، ولا استقرار ولا هدوء في كل بقاع العالم إلا باللجوء إلى الحوار، والتكافل والتعاون على قدم المساواة، وهذا إن كان لا يروق للمتسلطين والمستكبرين، فهو في النهاية مؤدٍّ إلى تحطيمهم وخيبتهم وهزيمتهم عما قريب، وليس للظلمة في نهاية الأمر إلا التراجع والخسران والانحسار وتحجيم الوجود.

إننا نريد أن نذكِّرهم - وهم أصحاب القوة العسكرية الضاربة والتسلط وممارسة الظلم - بشيء من وصايا السماء إن كانوا مؤمنين حقاً بشيء من القيم، ليسود الأمن والاستقرار في عالمنا الواحد، ويتقهقر جند الظلم والتسلط على المستضعفين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ٤/١] وهذا تقرير واضح لمبدأ المساواة في الإنسانية.

والمساواة تقتضي العمل الجماعي الشامل، والتعاون المثمر، والحوار الهادئ، والإذعان لما يقتضيه مبدأ الإخاء الإنساني العام، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣].

٣- الحب الحقيقي للإنسان

لا تصفو العلاقات الدولية والإنسانية، ولا تزول أسباب التوتر والغليان في عالمنا إلا بشعور فياض من الحب الصادق لكل إنسان في هذا الوجود، ومن أحب غيره عامله معاملة نفسه، وكان شعاره معه الإنصاف والعدل والحرص على تحقيق مصالح غيره كما يحب ويرعى مصالحه.

أما أن تبقى النزعة الفوقية مسيطرة على نفوس بعض القادة المتحكمين الآن في مصير العالم المعاصر، ويمارسون تصرفات عدوانية على الضعفاء، فلا أمل حينئذ في الاستقرار والوئام وإشاعة السعادة لكل إنسان.

وهذا يتطلب بحسب أنظمتهم المعلنة تفعيل التوجه إلى احترام حقوق الإنسان في كل مكان، لا أن يظل ذلك مجرد شعارات جوفاء، منذ إعلان الميثاق العالمي لحقوق الإنسان في منظمة الأمم المتحدة في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٤٨م.

ولا جدوى لأي حوار ما لم تتحقق الرغبة في إنجاحه، والانبعاث من عاطفة الحب الأخوي الإنساني، في ظل المبدأ الإسلامي السماوي الرفيع ألا وهو: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

٤- الاعتراف بالآخر

الآخر في المصطلح العام: كل ما عدا الإنسان المحاور، سواء أكان منتمياً لأي نظام أم دولة أخرى، أم يؤمن بدين آخر، أم من أتباع حضارة أخرى من الحضارات في عالمنا، أم من عرق آخر، أم له فكر مختلف، أم تبعية لأي اتجاه عقدي أم علمي، أم فلسفي أم انتهاج طريقة معينة في الحياة.

وهذا شرط أساسي لأي حوار، أما إن لم يتحقق الاعتراف بالآخرين أو أحس المحاور بنزعة فوقية أو حضارية، فإن الحوار يكون عديم الجدوى، وهذه مشكلة العصر، حيث لا يرى القوي إلا نفسه ودولته ووجوده، ولا يقيم في الواقع العملي أي اعتبار للآخرين الذين هم في نظر الأقوياء مجرد ميكروبات أو فيروسات، أو لا يستحقون الحياة، وإنما الحياة للأقوى، وهو ما كان سائداً في الأمم القديمة والجاهلية العربية الذين يرددون: «وإنما العزة للكاثر». أي الأكثر أتباعاً، والأقوى اقتصاداً، والأعز منعة وعسكراً وتفوقاً في أي شيء، وهذا عين

(١) أخرجه الجماعة (أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه) إلا أبا داوود.

الفساد والتخلف، وبصراحة أقول: لا أمل في الحوار ما لم يعترف بنا أعداؤنا في الغرب أو في الشرق.

٥- التقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة

كل حوار لا يتقيد بشرعة الحق والعدل ومبدأ المساواة فهو فاشل أو خائب، لأن منشأ النزاع والقلق هو الباطل والظلم وعدم التعادل، ولا ينجح الحوار إلا بالانطلاق من مسلَّمات ضرورية يحتكم إليها، ليزول الخصام والاضطراب والتوتر وتسوَّى المنازعات، لأن ملتقى الجميع دون أي إشكال معرفة مبدأ الحق أولاً، فالحق أحق أن يتبع، ولا يتسنى لأحد الاعتراض على النتائج إذا سوِّيت المنازعات على أساس من مراعاة حقوق الطرفين المتخاصمين أو المختلفين، فبالحق دوام الوفاق، وبالباطل يبقى الخلاف، وسرعان ما ينهار أي اتفاق إذا بني على الظلم، قال تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨١].

والعدل غير الحق كما هو معروف، لأن العدل ضد الظلم، والحق ضد الظلم، وبالعدل قامت السماوات والأرض، والعدل أساس لمنح المتحاورين حقوقهما، والوقوف عند مقتضى العدالة بينهما، أما الظلم فمؤذن بالخراب، ولا بد من كون المحاور كالقاضي الذي لا يتحيز ولا يميل لأي طرف على حساب الآخر، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

والمساواة في مراكز الأطراف المتحاورة مرجع الفصل في النزاع، فإذا مالت كفة أحد المتحاورين على حساب الآخر، فلا يتوافر الرضا بشيء، ولا تنطفئ نار المشكلة، والمساواة كالحق والعدل مرجع كل العقلاء والمتعاملين، فلا ينقص شيء تم فيه التساوي، ولا يفسخ عقد تعادل أو تساوى فيه كلا الطرفين في الحقوق والواجبات.

ومن أشهر الأمثلة على مبدأ المساواة الحوار في أصل الاعتقاد وإعلان

مساواة الطرفين في الإقرار بوجود إله واحد، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

٦- عناصر حضارتنا

الحضارة الإسلامية حضارة متميزة شاملة للحياتين الدنيوية والأخروية، المادية والروحية، لتظل الحضارة خالدة قائمة غير متعثرة، ولا مهددة بالانهيار، كما هو حال الحضارة الغربية المادية البحتة، بسبب اقتصارها على الأبعاد المادية وتخليها عن الأبعاد الروحية، قال الله تعالى مبيناً عناصر حضارتنا الأربعة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٧].

ومثلها سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١٠٣/ ١-٣].

دلت الآيات على عناصر الحضارة الإسلامية الأربعة: العمل للآخرة فهو بمنزلة المقوِّم لأعمال الإنسان، والعمل للدنيا وسيلة الآخرة، وإحسان العمل، واجتناب الفساد، فليس في حضارتنا مثلاً إلا تحقيق الخير والصلاح والإحسان في الابتكارات والأعمال، والبعد عن الفساد الذي هو مثل ابتكار آلات الدمار الشامل من قنابل هيدروجينية وذرية وكيماوية خطيرة.

٧- صون الأمن والسلم الدوليين والمحليين

إن من أخطر ما تعاني منه البشرية اختلال الأمن والتورط في حروب ظالمة على المستوى الداخلي والخارجي، لأن كل ما يهدِّد الأمن والسلام العالمي يُلحق ضرراً واضحاً بالبشرية والأوطان، فكم عانت البشرية من الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث قُتل أكثر من ستين مليون نسمة، وكم سقط من

مئات الألوف بسبب إراقة الدماء في أوربة، وارتكاب مجازر محاكم التفتيش فيها، انطلاقاً من تعصب ديني مذهبي في فترة القرون الوسطى.

وكم قدَّمت البلاد العربية - الإسلامية من دماء الشهداء لمقاومة الاستعمار، كالجزائر ذات المليون شهيد فأكثر، وغيرها من أجل تصفية الاستعمار البغيض.

وكم تُزْهَق أرواح بريئة طاهرة اليوم في ربع القرن الأخير كالحرب العراقية الإيرانية التي نجم عنها قتل مليون شهيد في إيران، ومثل ذلك الآن من قتل أطفال ونساء وشيوخ في العراق على يد الحلفاء بقيادة أمريكة، وكذلك الشأن في فلسطين وأفغانستان والصومال، وقبل ذلك على يد سفاحي الشيوعية في الاتحاد السوفييتي ويوغوسلافية، وتجدُّد ذلك في حروب التحرير في كوسوفو والبوسنة والهرسك وغيرها.

إن دعوة القرآن الكريم إلى إقرار السلم والأمن الدوليين واضحة في آيات قرآنية، منها قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة: ٢/٢٠٨]. وقوله عز وجل: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُۖ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٦/٨١-٨٢]. فكل إخلال بالأمن ظلم واضح واعتداء فاضح.

٨- ضرورة الحفاظ على اللغة العربية

تحاول بعض الدوائر الغربية، وفي قمتها أمريكة من أجل ترسيخ نظام العولمة إضعاف اللغة العربية، وقصرها على أهل الاختصاص، وإشاعة اللهجة العامية، وإحلال اللغة الإنكليزية محلها في سلَّم درجات التعليم كله، وفي ممارسة التجارة، والاستيراد والتصدير، وكذا في الكلام العادي، وفي المخاطبات الرسمية، إلا من عصم الله مثل دولة سورية التي جعلت الحفاظ على اللغة العربية في مؤتمر القمة العربي العشرين الأخير في دمشق أحد بنود المؤتمر وتوصياته الأساسية.

وذلك لأن اللغة العربية وعاء القرآن والإسلام، وزاد الثقافة العربية، والحفاظ على هوية الأمة العربية، كما أن من سلبيات العولمة محاولة إذابة اللغات المحلية المختلفة، ولو غير عربية، علماً بأنه قد ضاق الغرب باللغة العربية التي سجلت أعلى ارتفاع لها في نسبة الناطقين باللغات الرئيسية على مستوى العالم، فقفزت من (٢,٧٪) إلى (٣,٥٪) عام ١٩٩٢م[١].

وهذا يقتضي من الدول العربية والإسلامية زيادة العناية بتدريس اللغة العربية، لتوفير مستقبل زاهر لها، فإن اللسان العربي هو أساس صحة صلاة كل مسلم، ولتربية ذوق كل مسلم، فمن تعلَّم العربية رق طبعه، كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله.

٩- أهم موضوعات الحوار

موضوعات الحوار الإسلامي - المسيحي كثيرة أهمها ما يأتي[٢]:

- الموقف العقدي من قضايا بعينها، وفي مطلعها مقاومة العنصرية والتمييز العنصري والعدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل.

- العناية الشديدة بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه.

- التركيز على القضايا الاجتماعية، ومنها الأسرة والزواج والعفة، ومشكلات الشباب، وتحديد مركز المرأة في الأسرة والمجتمع، وتحقيق التكامل بينها وبين الرجل مع مراعاة متطلبات الفطرة الإلهية النقية، والمهام الإنسانية لها في الحياة، والتكافل الاجتماعي، والتعددية في المجتمع.

- علاقة الإنسان بالدولة وبحث قضايا الشورى والديمقراطية والمشاركة السياسية.

- قراءة التاريخ بنظرة فاحصة، وإبراز الصورة الإيجابية للتعايش المشترك والتعاون في الداخل والخارج، وتطلعات المستقبل.

---

(١) مجلة التسامح في عُمان، العدد الثاني ص ١٨٩.

(٢) المرجع السابق: ص٢٢.

الخلاصة

يعيش العالم الآن في حالة غليان وتوتر شديد بسبب اشتعال نيران الحروب وأزمة الغلاء العالمي، مما يجعل الحوار الحضاري ضرورة حيوية لإنقاذ الإنسانية والإنسان ذاته.

وذلك يستدعي بيان تكامل الحضارات القديمة والمعاصرة، حيث إن الحضارة كالعلم لا وطن لها، وكل أمة تقتبس من حضارة الأمة الأخرى، مما يثبت حق الإرث الحضاري.

وتكامل الحضارات مرتبط بأن المجتمعات الإنسانية متعددة الأديان والمذاهب والثقافات، كتعدد الأجناس والأعراق، وكلها تنصهر في النهاية في ظل حضارة واحدة، فكان لا بد من الحوار لمصلحة الإنسان والناس جميعاً، كما لا بد من التعاون فيما بين المجتمعات والتعارف، الذي عبرت عنه وثيقة أو صحيفة المدينة المنورة في العهد الإسلامي الأول، حين بداية تكوين الوجود الدولي للإسلام والمسلمين، فيما بعد الهجرة النبوية، فالتعدد ظاهرة أو سنة كونية من سنن الله تعالى.

والحوار الحضاري والحوار الإسلامي بين الأديان ومع الآخرين أمر حتمي ليتحقق التوافق والتقارب بين المفكرين والفلاسفة والحكماء في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والاعتقاد والمذهب والتمذهب محلياً ودولياً، ولإنعاش الحرية والحفاظ والرخاء، وحينئذ تجتث شجرة الإرهاب، ويبقى فقط حق الدفاع والمقاومة ضد المعتدين والمحتلين والغاصبين، خلافاً لما نشاهده من وجود إرهاب الدولة، وسحق الإنسان والاعتداء على بعض الدول الإسلامية والعربية اعتداءً وحشياً وفاضحاً. ولعل الحوار إذا صدقت النيات والعزائم فيه يخفف من آلام الإنسانية المعذبة، ويرفع الظلم عن الضعفاء والمستضعفين.

ومن أهم مقومات الحوار الحضاري في ميزان الإسلام الانطلاق من قاعدة الإيمان، والحفاظ على مبدأ الإخاء الإنساني لتقوية أواصر الود والحب

والسلام، وضرورة الاعتراف بالآخر، والإحساس بمشاعره ومطالبه وآلامه، والتقيد بمنهج الحق والعدل والمساواة، فهو المنهج المتعين في كل حوار، ولا بد من الاستفادة من مقوِّمات الحضارة الإسلامية الأربعة وهي الاستشعار بالحساب الأخروي، والعمل على عمران الدنيا والكون، وإحسان العمل، واجتناب الفساد وكل ألوان الشر والظلم والباطل.

ولا بد من العمل الجاد والدؤوب والمحايد لصون الأمن والسلم الدوليين والمحليين والتخلص من ظاهرة الإرهاب الدولي والفردي أو الجماعي، وضرورة العمل على إنعاش اللغة العربية لغة القرآن، ووعاء حضارة قدمت كثيراً للعالم كله.

ومواضيع الحوار كثيرة، منها مقاومة العنصرية والتمييز العنصري، وتفعيل مبدأ العدل الاجتماعي، والحرية والمسؤولية، والسلام القائم على العدل، والعناية بأوضاع الإنسان وتعلقه بأرضه ووطنه، وبحث مشكلات الأسرة والمرأة والشبان والفتيات، وعلاقة الإنسان بالدولة، والتعرف على أخلاق العلم والعمل والتقنية المعاصرة، وقراءة التاريخ بتأمل وحياد، والتخطيط لمستقبل أفضل، وتحقيق تعايش وتعاون أوطد وأمنع وأسلم.